# النص بين سلطـــة الكاتـــب والقارئ

**أ – وردة سلطاني**
**قسم الأدب العربي**
**كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية**
**جامعة بسكرة**

**الكاتب والنص في النقد الكلاسيكـــــي :**

الكاتب والقارئ والنص ثالوث يشكل عناصر أساسية للدراسات الأدبية ، والسردية منها على سبيل الخصوص. رؤية تجاذبتها على الأقل اتجاهات كثيرة، كان محورها النص الذي يدور حوله صراع الكاتب والقارئ حول ملكيته، وهذا من منظورات نقدية متعددة.

فالرؤية النقدية الكلاسيكية ترى في النص بنية مغلقة منتهية له بداية ونهاية، ومن هنا فهو يتميز بالأحادية على مستويات عدة أهمها الدلالة؛ أي له دلالة محددة والقارئ الجيد هو الذي يمسك بها لذا أجهدت النظريات القديمة نفسها في البحث عن الدلالة في المجتمع أو النفس أو في الشكل والمضمون وبما أن النص بنية مغلقة فهو ملك لصاحبه؛ أي للمؤلف وله سلطة عليا عليه ، وما على القارئ سوى البحث عن الدلالة الكامنة في وعي أولا وعي الكاتب، لذا يعتبر الكاتب هو المنتج الحقيقي للنص والمتلقي ما هو إلا مستهلك له [(1)].

وهكذا تبقى الدراسات الأدبية من خلال هذا المنظور تدور «في فلك المؤلفين فهم الدين يرسمون لأعمالهم غاياتها وهم الذين يوجدون لها وسائلها. أما الجمهور فإنه محط نية وغاية مقصد، يحيا على سبيل التقدير في وجدان الكاتب فحسب»[(2)].

من هنا أصيب النص بعقم على صعيد الممارسة النقدية، حيث سارت قراءاته في خط مستقيم، فكانت أفقية.

**النص من منظور الشكلية الروسية والبنيوية:**

جاءت المدرسة الشكلية وضعت حدا فاصلا للدراسات السابقة، حيث عزلت النص عن سياقه الاجتماعي والنفسي والتاريخي.

وهذا ما جعل **رومان ياكبسون** يدعو إلى تحديد مفهوم الخطاب الأدبي على أنه «نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام، وهو ما يفضي حتما إلى تحديد ماهية الأسلوب بكونه الوظيفة المركزية المنظمة»[3]. ولذلك كان النص حسب **ياكبسون** خطابا تركب في ذاته ولذاته. ونادى الشكلانيون الروس بضرورة ميلاد علم جديد للأدب هو الشعرية، وموضوع هذا العلم ليس الأدب كمفهوم عام، ولكن أدبية الأدب يقول **رومان ياكبسون** «أن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية ، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا»[4].

ومن هنا نقول من منظور الشكلانية والبنيوية أنهما حاولتا مقاربة النص الأدبي في ذاته ولذاته، فأنصار النظريتين ينظرون إلى النص على أنه شيئا موضوعيا يملك وجودا مستقلا ؛ أي بعيدا عن المؤلف والمجتمع والقارئ، وبالتالي ليس له امتداد خارج وجوده، وقد قادهم هذا التصور إلى دراسة النص الأدبي دراسة وصفية بالكشف عن بنياته وكيفية تركيبته وشكله وأنساقه.

فهذا **تودوروف** في إطار دفاعه عن الشعرية البنيوية يرى أن الهدف من التأويل أو التفسير أو القراءة جعل النص يتكلم بنفسه أي بعيد عن الكاتب والقارئ . وقد وجهت للشكلانية والبنيوية اتهامات ،لأنهما جعلتا من النص يعيش في قوقعة يقطع أواصل لتواصل والامتداد خارج الذات وبالتالي يصبح مكررا نفسه على مستوى التأويل ولا ينتج إلا نصا مثله وهذا مستحيل[5].

**الكاتب والقارئ من منظور الاتجاه السوسيولوجي:**

بما أن النص استحالة أن يعيش في ذاته ولذاته، فإنه حينها سيكون له امتداد خارج ذاته وهذا ما نجده في الدراسات التي اهتمت بالقارئ فقد بشر لها الأدب الماركسي والنقد الماركسي، معهم نشأت ثنائية الأديب والمجتمع، وقد أكدت نظرية الإنتاج هذا المبدأ، حيث اعتبرت الأديب منتجا والقارئ مستهلكا، وأكدت على علاقة الأديب بجمهور القراء، هذه العلاقة جدلية، إذ نجاح الكاتب مرهون بالجمهور «فالخط البياني لنجاح كتاب أو بقائه أو تجدد رواجه أو شهرة الكاتب وسمعته ظاهرة اجتماعية في أساسها»[6].

وقد برز الاهتمام الحقيقي بالقارئ مع علم اجتماع الأدب الذي يرى أن الكاتب عندما يكتب فهو يضع نصب عينية القارئ، ومن هنا رأى **روبير اسكاربيت:**«أن حياة الأعمال الأدبية تبدأ من اللحظة التي تنشر فيها، إذ هي في ذلك الحين تقطع صلتها بكاتبها لتبدأ رحلتها مع القراء»[7]. كما أن عملية النشر بحد ذاتها دلالة على أهمية القارئ في حياة الكاتب.

لكن مهما يكن من دور رائد لنظرية الإنتاج وعلم اجتماع الأدب في مدهما خيوط التواصل بين القارئ والكاتب والنص إلا أنهما اهتمتا بالقارئ الحقيقي في مقابل الكاتب الحقيقي، أي خارج الأعمال الأدبية، خارج النص. وقد انتهى الجدل بضرورة الاهتمام بالقارئ الذي يقول شيئا لا يقوله النص.

**القارئ ونقد الاستجابة:**

النص يتجاوز ذاته بالضرورة وإسقاطه خارج ذاته أمر ضروري لتحقيقه كما أن التداخل بين ما يقوله النص وما يقوله القارئ يقودنا إلى مدرسة **كونستانس** وجمالية التلقي مع رائديها **ياوس وآيزر** اللذين اهتما برسم واقعي للمجتمع المستقبل (بكسر الباء)، أي الاهتمام بالقراء، ومن هنا سنبتعد عن المؤلف والنص في مقابل القارئ، وهنا يكون «بوسعنا الآن أن نتحدث عن موت النصية بوصفها موضوعا، مثلما تحدثنا عن موت المؤلف»[8].

والحقيقة أن شعرية التلقي لم تأت لتحارب شعرية الإرسال، وإنما لتحارب شعرية النص التي كانت قد تحولت إلى مصدر مستقر للبحث الأدبي، ف ياوس انتقد طرفين متناقضين في النظرية الأدبية، الشكلانية بافتقارها إلى البعد التاريخي، والنقد الماركسي بنظره إلى النص الأدبي بوصفه نتاجا تاريخيا صرفا.

ومن منظور نظرية التلقي لا يصبح للنص أهمية أو قيمة أدبية إلا إذا دخل في سياق الاستعمال الجماعي، أي عندما يقرر القارئ أن يتناول النص ويؤثر فيه ومن هنا يرى **(أليس J.Elles)**:«أن النص لا يصبح أدبيا إلا إذا استعمل بوصفه أدبا عند جماعة من القراء، أي عندما يصنع المستقبلون المعاصرون للنص في إطار أفق محدد للقراءة» [9].

**ماهي القراءة؟** إن عملية القراءة تدخل في دينامية البحث عن مدلول من أجل نصيه، ولا يمكن أن توجد دون هذا البحث الشغوف من جانب القارئ، فالقراءة ليست ذلك الفعل

البسيط السطحي الذي يقوم به القارئ، وليست تقبلا سلبيا لمعنى منتهي حدده الكاتب يجب العثور عليه كما يقول **بيار ماشيري**. وليس معنى منتهيا نعثر عليه في وعي الكاتب أولا وعيه، أن القراءة «أشبه ما تكون بقراءة الفلاسفة للوجود أنها فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز ويضم العلامة إلى العلامة، ويسير في دروب ملتوية جدا من الدلالات نصادفها حينا ونتوهمها حينا فنختلقها اختلاقا، إن القارئ وهو يقرأ يخترع ويختلق ويتجاوز ذاته نفسها مثلما يتجاوز المكتوب أمامه، إننا في القراءة نصب ذاتنا على الأثر، وأن الأثر يصب علينا ذواتا كثيرة فيرد إلينا كل شيء فيما يشبه الحدس»[10].

ففعل القراءة إذن هو إنتاج ثان للنص وهذا الإنتاج هو عملية الإبداع التي يمارسها القارئ يقول **آيزر**«فعل القراءة بوصفه تفاعلا ديناميا بين النص والقارئ، حيث النص يجاوز نفسه ممتدا في القارئ، والقارئ يخرج عن ذاته يمتدا في النص»[11]. هناك تفاعل بين القارئ والنص من جهة، وبين النص والقارئ من جهة أخرى.

يعد **آيزر (w.Iser)** المنظر الأكثر تمثيلا لجماليه التلقي القائمة على التأويل والقراءة بصفتها ابداعا للمدلول وعلى التلقي بوصفه مكونا مركزيا في التكوين الداخلي للقضية ذاتها وفعل القراءة هو الذي يكون ويولد الدلالة النصية التي لا تقدم إلا على أنها نتيجة للحدث المتبادل بين الإشارات النصية وأفعال كفاءة القارئ»[12].

يهتم آيزر بأولويات المعنى المتمثلة في سجل النص والإستراتيجيا، ومستويات المعنى وواقع اللاتحديد فهذه العناصر تحافظ على انسجام المعنى، يبقى التفاعل بين القارئ والنص هو الضابط لعملية القراءة.

**أنواع القراء:**

إن أساس نظرية القراءة هو ذلك التفاعل بين القاري وبين النص، فالنص يمتد في القارئ والقارئ يمتد في النص وهنا تحدث الاستجابة وهي نوع من التواصل بينهما، فالقارئ يتلقى النص كاستخدامات لغوية في الأدب والحياة ورغم أنه لا يجيب الكاتب إلا انه يشعر أنه يخاطبه، وإذا كان هذا على مستوى النص الأدبي بصفة عامة ، فإن القارئ عندما يدخل اللعبة السردية فإن المشهد السردي يستقطب من زاوية مغايرة حيث تكثر قنوات التواصل وتدخل في حوارية كما سماها **باختـــين**.

إذا كانت عملية التواصل تقتضي وجود (مخاطـــب–رسالـــة–مخاطـــب) في إطار عملية التواصل، فإنه على مستوى السرد تكثر قنوات الاتصال ونجد من جانب المرسل والرسالة والمرسل إليه ما يلـــــي:

المؤلف الحقيقي –المؤلف الضمني –الراوي = المروي = المروي له –القارئ الضمني – القارئ الحقيقي.

**المؤلف الضمني:** يمثل المؤلف الحقيقي فهو الذات الثانية المجسدة في النص، وعلاقته بالمؤلف الحقيقي يسلم بأنها ذات تعقيد سيكولوجي، وهما متطابقان فما يطرأ على الأول يطرأ على الثاني.

المؤلف الضمني يختلف عن الراوي، يعرف الراوي كصوت يتلكم في النص، أما المؤلف الضمني لا صوت له، يعلمنا بصمت بشتى الوسائل، يدركه القاري من خلال النص كتشييد يجمعه من كل مكونات النص.

القارئ الضمني تشييدا أيضا، فكما أن المؤلف الضمني يختلف عن المؤلف الحقيقي والراوي، فكذلك القارئ الضمني يختلف عن القارئ الحقيقي والمروى له.

**القارئ الضمني عند آيزر:** يعد آيزر أكثر المنظرين تمثيلا لجمالية التلقي اعتمادا على الاتجاه الظاهراتي عند انجاردن، وجمالية التلقي، تعتمد أساسا التفسير والقراءة بصفتهما ابداعا للمدلول، وعملية التلقي بوصفها مكونا أساسيا في التكوين الداخلي للنصية ذاتها، ومن جهة ثالثة فعل القراءة يولد الدلالة النصية التي هي بمثابة النتيجة للحدث المتبادل بين الإشارات النصية وأفعال كفاءة القارئ، فرحلة القارئ في النص عملية متواصلة من التعديلات تحمل توقعات على ما نذكره على الشخصيات والأحداث، فالقارئ يملأ الفراغات والثقوب في النص التي تركها الكاتب وهي العملية التي يقوم بها القارئ تسمى بالاستراتيجيات ؛ فالقارئ عندما يقرأ نصا يكون باستمرار في حالة التقييم واستقبال الأحداث غير المنتهية، أو على الأقل فهي مبهمة في جانب في جوانبها، تتغير مع تغير القراءات [13].

كما أن القارئ يصبح بفعل القراءة مندمجا في النص متفاعلا معه يمتد في النص، كما يمتد النص فيه، فالقارئ الضمني عند آيزر«ليس الشخص التخيلي الذي يخاطبه المؤلف

الضمني أو الشخص الحقيقي القارئ، أو مزيجا من الاثنين، ولكنه على الأصح امكانية مبهمة لما تتحقق، ولا توجد، ولا تتغير إلا في عملية القراءة»[14].

**القارئ النموذج عند أمبرطو إيكو:**حققت نظرية القراءة نجاحا كبيرا ، حيث أرست دعائم قراءات جادة للنصوص الأدبية وخاصة ما جاء به آيزر ، انطلق أمبرطو إيكو من هذه المنطلقات وحاول توسيع نظريته في إطار المعالجة السيميائة ، التي يعتمد القارئ فيها على فك الشفرات اللغوية .كما أن القراءة عنده تأكيد للنصية وليس نفيا لها؛لأنه قلب الفرضية التي تقول : أن كل نظرية للنص هي نظرية للقراءة ، فأصبحت عنده ،أن كل نظرية للقراءة ،هي نظرية للنص .ومن هنا وطد العلاقة بين القارئ والنص، وربط التأويل بقانون النص واقترح القارئ النموذج كجزء من آلية النص وإستراتيجيته ، ومن هنا قام بربط البنيات النصية والتصنيفات باللانهائية والانفتاح ؛إذ يكون التعامل مع النصوص المفتوحة بدل النصوص المغلقة ، **ومن هنا تكون نظرية التلقي هي نظرية النص** .

ينطلق إيكو من نقطة مهمة مفادها ، أن النص إستراتيجية ينظمها الكاتب والقارئ على حد سواء ، فالمؤلف لكي ينظم إستراتيجية نصية عليه أن يعتمد على سلسلة من القدرات ، هذه القدرات هي نفسها التي يستعملها قارئه « لهذا يتوقع المؤلف قارئا نموذجيا يستطيع أن يتعاون من أجل تحقيق النص بالطريقة التي يفكر بها المؤلف ويستطيع أن يتحرك تأويليا كما تحرك المؤلف » (15) .

ويضع إيكو النص في مواجهة القارئ ، فالنص نتاج مصيره التأويل الذي هو جزء من الآلية التوليدية« إن توليد نص هو تحريك إستراتيجية تشترك فيها توقعات أفعال أخرى » (16) .

إن الاعتماد على القاعدة التخاطبية التي تفترض دائما وجود آخر نحاوره، وفي هذا الحوار يتجسد التأويل وبمقتضاه تتم عملية توسيع دائرة التأويل التي يقوم بها القارئ لأن «النص نسيج من الفضاءات البيضاء والفجوات التي يجب ملؤها ، وأن الذي أنتجه (أرسله) كان ينتظر دائما بأنها ستملأ » (17) من طرف القارئ الذي يعيش مع المؤلف على هذه المساحة من المعاني يختزلها أو يضيقها المؤلف ، ليوسعها القارئ ، وكلاهما يدخل في لعبة التغييب والإظهار.

**الهوامش:**

1)ينظر: سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص:118.

2)حسين الواد، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، سراس للنشر، تونس، سلسلة إجراءات، ط1، 1985، ص:.68

3) سعيد يقطين.تحليل الخطاب الروائي. المركز الثقافي العربي.ط2. 1993 ص3

4) المرجع نفسه

5)ينظر، نادر كاظم المقامات والتلقي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص:25-.26

6)رونيه ويليك، أوستن وارن، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص:.104

7)روبير اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب،

8)خوسيه ماريا.ب.إيفانوكس، نظرية اللغة الأدبية، تر: حامد أبو حمد، مكتبة غريب، القاهرة، ص: 120.

9) المرجع نفسه، ص: .121

10)حسين الواد، المرجع السابق، ص:.70

11)نادر كاظم، المرجع السابق، ص:.26

12)خوسيه مريا، المرجع السابق، ص:.132

13)رايمون سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر:سعيد الغانمي،المؤسسة العربيةللدراسات والنشر. ص: 164 ومابعدها.

14) مارتن ولاس، نظريات السرد الحديثة. تر: حياة جاسم محمد.المجلس الأعلى للثقافة.1998، ص:.216

15) أمبرطو إيكو. القارئ النموذجي.تر: أحمد بوحسن .طرائق تحليل النص الأدبي.منشورات اتحاد كتاب المغرب.سلسلة ملفات .1992 .ط1الرباط.1992. ص160

16) المرجع نفسه .ص 58

18)المرجع نفسه .ص1958